سليم سلامة*

عن كتاب «أعداء، قصة حُب»
لمؤلفه هيلل كوهين

يبدأ كتاب هليل كوهن الجديد «أعداء، قصة حُب» بـ «لقاء عربي ـ أشكنازي عنيف حصل في يافا في العام ١٩٤٨». «اخترت حادثة الخلاف اليهودي الداخلي هذه لأنها تضيء بصورة أخرى، جديدة، العلاقات بين الشرقيين والعرب». بداية غير مشجِّعة تُبشّر، وفقاً لتفسير كوهن، بقدوم الصهيونيين ـ الأشكناز إلى فلسطين العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر باعتباره نهاية حياة الوداعة التي سادت بين اليهود والعرب حتى ذلك الحين. وعليه، فإن «الفرضية الأساس التي لا مبرر لتأليف هذا الكتاب بدونها هي أن ثمّة فرقاً بين موقف السفارديين ـ الشرقيين تجاه العرب والقضية الفلسطينية وموقف الأشكنازيين تجاههم». في معرض ذلك، يقبل كوهن، في الوقت نفسه، «الرأي

* صحفي وحقوقي فلسطيني من الداخل.

الشائع بشأن تأثير الأصل العِرقي على المواقف السياسية» و«وجود تتابعية بين المشرقية المحلية من الفترة العثمانية والانتداب البريطاني والمشرقية ما بعد قيام الدولة». نقتبس من كتاب جورج م. فريدريكسون: «العنصريون يدّعون بأن مثل هذه الفوارق نابعة، بالأساس، من عوامل وراثية غير قابلة للتغيير وليس من ظروف بيئية أو تاريخية... لكن، ثمة طريقة أخرى لكتابة التاريخ... ثم عرضه، بالتالي، في إطار حقل معرفي إنساني في جوهره وله مميزاته الخاصة». هذه هي، ربما، الصعوبة الأساسية في التعامل مع كتاب كوهن ـ غياب «نظام معرفي إنساني» دونيّ يجسّر على اختلافات الأصل، الدين والطائفة ويمثل حلاً للصراع وتمحوراً في أحداث تاريخية واقتباسات من مقتطفات صحافية راهنة يفترض بها، تحديداً، تأكيد فرضياته التمييزية الثلاث. المفارقة هنا هي أن المبنى الكرونولوجي للكتاب، من فصله الأول بعنوان «في أواخر الفترة العثمانية» وحتى الفصل الخامس بعنوان «ما بعد الانقلاب السياسي»، يبدو أشبه بدحض لفرضياته. وهكذا، فإن الاستنتاج في نهاية الكتاب هو: «إذا كانت المشرقية في بدايات الصهيونية قد أدرجت إمكانية وجود علاقات القرابة مع عرب البلاد، فقد أصبحت المشرقية في نهاية تلك الفترة هوية تتشكل (أيضاً) على أساس توجه معادٍ للعرب بصورة متشددة». على الرغم من ذلك، وحتى بعد أن تبدّلت الهوية المشرقية ولم تعد «قريبة من العرب»، كما كانت في بدايتها، فإن كوهن لا يتخلى عن فرضياته بشأن أفضلية «الموقف المشرقي من العرب»، تأثير الأصل على المواقف السياسية واستمرارية الهوية المشرقية، وكأنّ شيئاً لم يحدث إطلاقاً. وأكثر من هذا، كذلك في ما يتعلق ببدايات الاستيطان الصهيوني، ليس ثمة للتعميم الذي يضعه كوهن بشأن «الموقف الأشكنازي من العرب» ما يستند إليه. وهكذا، على سبيل المثال، لا يشمل فهرس كتابه أي ذكر لكتاب إحاد هعام «الحقيقة من أرض إسرائيل» أو لكتاب إسحق إبشطاين «المسألة المجهولة». وثمة موقف صهيوني آخر تجاه العرب صدر عن مجموعة من المفكرين من أوساط المستوطنين الأوائل، كان أبرزهم موشي سميلانسكي أحد مؤسسي بلدة «رحوفوت» وأحد أوائل الكتّاب في «اليشوف».

في عملية الإصلاح الديمقراطي التي بدأت في أعقاب تمرد «تركيا الفتاة» في العام ١٩٠٨، دعوا إلى إقامة «حكم ذاتي يهودي في أرض إسرائيل، يتحقق نتيجة لتحالف ثلاثي بين الأتراك، العرب واليهود». في المقابل، كما يقول كوهن، رحّب السكان السفارديم بتمرد «تركيا الفتاة»، مقارنة بالمستوطنين الصهيونيين الذين «رفعوا علم صهيون مع نجمة داود للتأكيد على هويتهم القومية اليهودية، المختلفة». لا يرد، أيضاً، أي ذكر لمارتن بوبر، أويجن هفليخ (موشي يعقوب بن غبريئيل) وجاكوب فاسرمان ومفكرين آخرين من بين الصهيونيين الألمان الذين يقول عنهم هفليخ أن «آسيا كانت تشكل بالنسبة لهم قاعدة لوجهة نظر متطرفة في معاداتها لأوروبا، عبروا عنها من خلال فكرة الصهيونية الآسيوية». في وقت لاحق، خلال فترة الانتداب كلها وحتى حرب العام ١٩٤٨، يتجاهل كوهن تماماً التناقض الإيديولوجي والسياسي الذي قسّم «اليشوف» بين الشيوعيين وأحزاب اليسار الصهيونية ـ بوعالي تسيون، غدود هعفودا وهشومير هتسعير في الجهة الأولى وحزب مباي الحاكم، الصهيونيين الليبراليين والتيار التنقيحي شبه الفاشي في الجهة الثانية. وهو التناقض الذي انعكس بصورة واضحة في الموقف الإيجابي الذي اعتمدته أحزاب اليسار تجاه الطبقة العاملة الفلسطينية. وهكذا، فقد حذر إليعازر هكوهن، عضو «بيت ألفا»، في أوائل الثلاثينيات، من «الإسقاطات الكارثية المترتبة عن سياسة القيادة الصهيونية حيال العرب» بينما كان «هشومير هتسعير» يدعو، حتى عشية إعلان قيام الدولة في ١٤ أيار ١٩٤٨ بالضبط، إلى «إقامة دولة اشتراكية ثنائية القومية في أرض إسرائيل». وفي مؤتمر حزب «بوعالي تسيون» الذي شهد انقسام الحزب في العام ١٩٢٠، رفض دافيد بن غوريون ادعاء متحدثي اليسار بأنّه «عبر التضامن الطبقي بين عمال كلا الشعبين، سيكون في الإمكان التجسير على التناقض القومي وإلغاؤه». الشيوعيون، الذين شكلوا الحزب الوحيد الذي كان فيه أعضاء من العرب واليهود في فترة الانتداب البريطاني، يرد ذكرهم لدى كوهن في صفحة واحدة فقط لكي يخبرنا بأن غالبية أعضاء الحزب كانت من أصول شرق أوروبية، لكن كان بينهم أيضاً «سمحا تسباري من أصل يمنيّ ومئير سلونيم المولود في الخليل» (من المثير ماذا كان تسباري وسلونيم سيقولان عن هذا؟!).

عن كتاب «أعداء، قصة حُب» لمؤلفه هيلل كوهين

من الناحية التاريخية، يبدو كتاب كوهن ـ كما أشرنا آنفاً ـ كأنه مجموعة انتقائية من الأحداث ومقتطفات الصحف التي ترمي إلى إثبات فرضياته الثلاث، ظاهرياً، بعيداً عن روح الفترة والسياق اللذين تحدث فيهما الأشياء وتُقال. وبتعبير إدوارد هـ. كار، يبدو أن كوهن نسي "أن الحقائق تتحدث فقط حين يستدعيها المؤرخ لتفعل ذلك".

هكذا، إذن، نرى أن الصعوبة في كتاب كوهن ثلاثية: منطقياً، يبدو أنه يتحرك بين منظومتين من المفاهيم: طبقية ـ اجتماعية وإثنيّة ـ ثقافية، وليس من الواضح عنده في نهاية المطاف ما الذي يتقدم على ماذا ـ من حيث الزمن والدلالة. هل المشرقيون «في كلتا الفترتين هم الطبقات المتدنية» وموقفهم من العرب يتحدد تبعاً للظروف التاريخية ومكانتهم الاجتماعية، أم أن المشرقيين هم عنصر جوهري محايد يشكل قوة محركة ومفهوماً يفسر «الفارق بين الموقف السفارادي ـ الشرقي من العرب والقضية الفلسطينية وبين الموقف الأشكنازي منهم»؟.

من الناحية التاريخية، يبدو كتاب كوهن ـ كما أشرنا آنفاً ـ كأنه مجموعة انتقائية من الأحداث ومقتطفات الصحف التي ترمي إلى إثبات فرضياته الثلاث، ظاهرياً، بعيداً عن روح الفترة والسياق اللذين تحدث فيهما الأشياء وتُقال. وبتعبير إدوارد هـ. كار، يبدو أن كوهن نسي «أن الحقائق تتحدث فقط حين يستدعيها المؤرخ لتفعل ذلك». هكذا، على سبيل المثال، يقتبس، في الصفحة ٧٠ في الفصل الأول بعنوان «والتركي في البلاد آنذاك»، التصريح الذي أدلى به موطا (مردخاي) غور عن الشرقيين خلال انتخابات العام ١٩٤٨ وأقوال نير مئير، السكرتير العام لحركة الكيبوتسات، عن «البيت شانيين» (البيسانيين) باعتبارها إثباتاً على «جانب الاستمرارية في العلاقات بين الأشكنازيين والطوائف الشرقية منذ بداية القرن العشرين حتى اليوم».

من الناحية السياسية، يدّعي كوهن في الـ «خاتمة» بأنّ «ظواهر العنصرية تحتّم إجراء مراجعة شاملة، من الألف إلى الياء... والتحليل الذي عرضناه هو مساهمة في هذه المراجعة المقتَرَحة». ليس هذا هو المقصود، في رأيي المتواضع. كوهن ينتقد إقصاء اليهود الشرقيين والتمييز ضدهم في المجتمع الإسرائيلي. ومع ذلك، هو ينتقد النخبة الحاكمة «من الداخل»، بصفته يهودياً شرقياً يصل إلى التاريخ الصهيوني بعد حصوله. أن يكون المجتمع الإسرائيلي، لا سمح الله، قائماً وفاعلاً وسط «فراغ اجتماعي» كما يقول، بمعزل وبانقطاع عن ظروف الاستيطان الصهيوني والصراع التاريخي مع الشعب الفلسطيني. وعليه، يبدو أن «المراجعة» التي يقترحها تمنحه فقط، بكونه «شرقياً»، شعوراً وهمياً بالسموّ الأخلاقي وكأنّ اليهود الشرقيين لا يزالون يساندون الفلسطينيين مثلما كانوا أيام «التركي في البلاد آنذاك». في غياب مفهوم جمهوري عن نظام سياسي يحتوي فلسطين والفلسطينيين، فإن المراجعة التي يقترحها كوهن هي نوع من «الراديكالية الفاخرة» التي تخدم اليمين فحسب، سواء عن وعي وقصد أو بدونهما. هذه هي إشكالية الهوياتية الشرقية التي تحافظ على النقد تجاه الخارج كأنما قد استُنفدت مصادر النقد فعلياً وتمنع، بالمناسبة، النقد اليساري الراديكالي الذي يتجاوز، حقاً، نطاق الوضع الإسرائيلي القائم فعلاً.